

أنهم بَمُدِّ صَبْتِهِمْ، وعظمت أقدارهم، لما كانوا عليه من المقامات في الدين والملة. فتلقيت بالقبول من يومئذ. فلما رجع الناس إلى التحقيق والتحصيل، وجاء أبو محمد بن عطية، من المتأخرين بالمغرب، فاختص تلك التفاسير كلها، وتجرى ما هو أقرب إلى الصحة منها، ووضع ذلك في كتاب، متداول بين أهل المغرب الأندلس، حسن المنحى. وتبعه القرطبي في تلك الطريقة، على منهاج واحد في كتاب آخر مشهور، بالشرق.

والصنف الآخر من التفسير، وهو ما يرجع إلى اللسان من معرفة اللغة والإعراب، والبلاغة، وتأدية المعنى بحسب المقاصد والأساليب؛ وهذا الصنف من التفسير قلَّ أن ينفرد عن الأول؛ إذ الأول هو المقصود بالذات، وإنما جاء هذا بعد أن صار اللسان وعلومه صناعة. انتهى.

## ٢ — قاعدة في معرفة صحيح التفسير، وأصح التفاسير عند الاختلاف:

◁ قال الإمام محمد بن المرتضى البيماني رضى الله عنه في كتابه «إشار الحق على الخلق»: :

فصل: في الإرشاد إلى طريق المعرفة لصحيح التفسير،

وأصح التفاسير عند الاختلاف بطريق واضح لا يشك أهل الإنصاف

في حسن التنبيه عليه والإرشاد إليه :

«اعلم أن كتاب الله تعالى، لما كان مفزع الطالب للحق بمدالإيمان، وكان محفوظا كما وعد به الرحمن، دخل الشيطان على كثير من طريق تفسيره، وعدم الفرق بين التفسير والتحريف والتأويل والتبديل، ولو كان لكل مبتدع أن يحمله على ما يوافق هواه، بطل كونه فرقا بين الحق والباطل. وقد ثبت أنه يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق. وهذا لا يتم إلا بحراسته من دعاوى المبطلين في تصرفاتهم واحتياهم على التشويش فيه، ولبس صوادعه وقواطعها بخوافيه، وهذه هذه فليتهم المعظم له بمعرفتها، ويتأملها حق التأمل، ويعترف أسبابها ممن قد مارسها».

وقد أوضحها رضى الله عنه في كتابه المذكور ، وجود الكلام عليها ثم قال : فإذا عرفت ذلك فلا غنى عن معرفة مراتب المفسرين ، حيث يكون التفسير راجعاً إلى الرواية ؛ ثم مراتب التفسير ، حيث يكون التفسير راجعاً إلى الدراية .

أما مراتب المفسرين : فخيرهم الصحابة رضى الله عنهم ، لما ثبت من الثناء عليهم في الكتاب والسنة ، ولأن القرآن أنزل على لغتهم ، فالملط أبعد عنهم من غيرهم ، ولأنهم سألوا رسول الله ﷺ عما أشكل عليهم ، وأكثرهم تفسيراً حبرُ الأمة وبحرها عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، وقد جُمع عنه تفسير كامل ، ولم يتفق مثل ذلك لغيره من الصدر الأول الذين عليهم في مثل ذلك الموعول ، ومتى صح الإسناد إليه كان تفسيره من أصح التفاسير ، مقدماً على كثير من الأئمة الجاهير ، وذلك لوجوه :

أولها : أن رسول الله ﷺ دعا له بالفقه في الدين ، وتعلم التأويل أى التفسير ، وصح ذلك واشتهر عن رسول الله ﷺ ، وله طرق في جمع الزوائد . وقال الحافظ أبو مسعود في أطرافه : إنه مما أخرجه البخارى ومسلم بكماله . وفيهما من غير طريق أبى مسعود سائر الرواة « اللهم علمه الكتاب والحكمة »<sup>(١)</sup> ، وفي رواية « اللهم فقهه في الدين » . وفي رواية الترمذى : أنه رأى جبريل عليه السلام مرتين ، ودعا له النبي ﷺ بالحكمة مرتين . وينبغى معرفة سائر مناقبه مع ذلك في مواضعها ، ولولا خوف الإطالة لذكرتها .

وثانيها : أن الصحابة اتفقوا على تعظيمه في العلم عموماً ، وفي التفسير خصوصاً ، وسموه البحر والخبر ؛ وشاع ذلك فيهم من غير تكبير ، وظهرت إجابة الدعوة النبوية فيه ، وقصة عمر معه ، رضى الله عنهما ، مشهورة ، في سبب تقديمه وتفضيله على من هو أكبر منه من الصحابة ، وامتحانه في ذلك<sup>(٢)</sup> .

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ٨ .

(٢) صحيح البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ١١٠ - سورة إذا جاء نصر الله والفتح ، ٤ - باب فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً .

عن ابن عباس قال : كان عمر يدخلنى مع أشياخ بدر ، فكان بعضهم وجد في نفسه =

وثالثها : كونه من أهل بيت النبوة ، ومعدن الرسالة .

ورابعها : أنه ثبت عنه أنه كان لا يستحل التأويل بالرأى . روى عنه أنه قال : من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار . وفي رواية « بغير علم » رواه أبو داود في العلم ، والنسائي في فضائل القرآن ، والترمذي في التفسير<sup>(١)</sup> ، وقال : حديث حسن ، وشروطه فيما قال فيه « حسن » أن يأتي من غير طريق .

والخامس : أن الطرق إليه محفوظة غير منقطعة ، فصح منها تفسير<sup>٢</sup> نافع<sup>٣</sup> ، ممتع<sup>٤</sup> . ولذلك خصصته بالذكر ، وإن كان غيره أكبر منه ، وأقدم وأعلم وأفضل ، مثل علي بن أبي طالب عليه السلام ، من جنسه وأهله ، وغيره من أكابر الصحابة رضي الله عنهم . لكن ثبوت التفسير عنهم قليل ؛ بالنظر إليه ، رضي الله عنهم أجمعين .

ثم المرتبة الثانية من المفسرين «التابعون» ومن أشهر ثقاتهم المصنفين في التفسير : مجاهد وعطاء وقتادة والحسن البصري وأبو المالبة ربيع بن مهران ومحمد بن كعب القرظي وزيد ابن أسلم . ويلحق بهؤلاء عكرمة ، ثم مقاتل بن حيان ومحمد بن زيد ، ثم علي بن أبي طلحة ، ثم السدي الكبير . وتتمة هذا في الإيثار وفي الإيقان .

قال ابن تيمية : أعلم الناس بالتفسير أهل مكة لأنهم أصحاب ابن عباس ، كهجاهد ، وعطاء بن أبي رباح وعكرمة مولى ابن عباس وسعيد بن جبير وطاوس وغيرهم . وكذلك

فقال : لِمَ تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله ؟ فقال عمر : إنه من حيث علمتم . فدعاه ذات يوم فأدخله معهم . فما رُوِيَتْ أنه دعاني يومئذ إلا ليربهم . قال : ما تقولون في قول الله تعالى : إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ؟ فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتّح علينا . وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً . فقال لي : أ كذاك تقول يا ابن عباس ؟ فقلت : لا . قال : فما تقول ؟ قلت : هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له . قال : إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ، وذلك علامة أجلك ، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً . فقال عمر : ما أعلم منها إلا ما تقول .

(١) انظر الحاشية رقم ٥ ص ٩ .

في الكوفة أصحاب ابن مسعود . وعلماء أهل المدينة في التفسير مثل زيد بن أسلم الذي أخذ عنه ابنه عبدالرحمن بن زيد، ومالك بن أنس . انتهى .

### ٣ - قاعدة في أنه غالب ما صح عن السلف من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع ، لا اختلاف تضاد :

قال ابن تيمية : يجب أن يعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم بين لأصحابه معاني القرآن ، كما بين لهم ألفاظه . فقوله تعالى : « لَتُبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ » (١) يتناول هذا وهذا . وقد قال أبو عبد الرحمن السُّلَمِيُّ : حدثنا الذين كانوا يقرؤون القرآن كعثمان بن عفان وعبدالله ابن مسعود وغيرهما ؛ أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يملأوا ما فيها من العلم والعمل . قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً . ولهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة .

وقال أنس : كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جَدَّ في أعيننا ، رواه أحمد في مسنده (٢) . وأقام ابن عمر على حفظ البقرة ثمان سنين ، أخرجه في الموطأ (٣) .

وذلك أن الله قال « كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ » (٤) . وقال : « أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ » (٥) وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن . وأيضاً فالعادة

(١) انظر الحاشية رقم ٥ ص ١٠ .

(٢) مسند الإمام أحمد ، جزء ثالث ، صفحة ١٢٠ ( طبعة الحلبي ) .

(٣) الإمام مالك في الموطأ في : ١٥ - كتاب القرآن ، ١١ - وحدثني عن مالك أنه بلغه أن عبد الله بن عمر مكث على سورة البقرة ثمان سنين يتعلمها ، صفحة ٢٠٥ .

(٤) [ ٣٨ / ص / ٢٩ ] كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ .

(٥) [ ٤ / النساء / ٨٢ ] أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا .